عِبَرُ الزَّمَان وَمَا جَرَى بِهِ الحَدَثَانِ

السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور عبد العزيز القارئ

(بِقَلَمِهِ)

الأصول

في أوائل القرن الرابع عشر سنة (١٣٠٠) هـ ، أو قبلها بقليل ، كان الشاب عبد الرحيم ابن المُلَّا محمد عظيم القارئُ الخُوقَنْدِيُّ المدنيُّ ، يجلس على عادة القراء في ذلك الزمان المبارك في دكة القُرَّاء شماليَّ الحجرة النبوية بالمسجد النبوي الشريف ؛ وهي الدكة التي تقع شماليَّ دكةِ التَّهَجُّد ، بينهما فسحةٌ تؤدي إلى باب جبريل ، وخلفها من الشمال بابُ النساء ؛ اعتَادَ قراءُ المسجد النبوي الجلوسَ هناك ما بين المغرب والعشاء ، ومن كانت نوبته يرفع صوتَهُ ويُرتِّل القرآنَ ، وكان مِمَّنْ يُرتِّلُ في هذه الدكةِ حينذاك الشيخُ حسن بن إبراهيم الشاعر شيخُ القراء بالمسجد النبوي ، وإبراهيم سَمَّان شيخُ المؤذنين ، وغيرهما ..

في ذلك اليوم كانت نوبة الشاب القارئ عبد الرحيم الخُوقَنْدِي ؛ فكان يصدح بالقرآن ؛ ومرَّت امرأةٌ « مَرْغِلَانِيَّةٌ » [١] من سكان المدينة المنورة مع ابنها « محمد أمين حَاجِّي المَرْغِلَانِي » ، وكان

(١) النسبة إلى مدينة « مَرْغِلَان » من مدن وادي فرغانة في بلاد ما وراء النهر « تركستان » .

« قُومَنْدَانًا » بالجيش التركي ، فسمعا ذلك الترتيل الجميل ؛ فوقفا يستمعان ؛ ثم طلبت تلك المرأةُ الجليلةُ من ابنها أن يتفق مع هذا القارئ الشاب ليختم لهم ختمةً في دارهم بـ « الدَّرْوِيشِيَّةِ » ؛ وتمَّ ذلك ؛ وكانت هدية تلك المرأة النبيلة لهذا القارئ الشاب أنْ زَوَّجَتْه ابنَتَهَا .

ذلك القارئُ الشاب هو جدُّنَا ، وعروسُهُ المَرْغِلَانِيَّةُ جدَّتُنا .

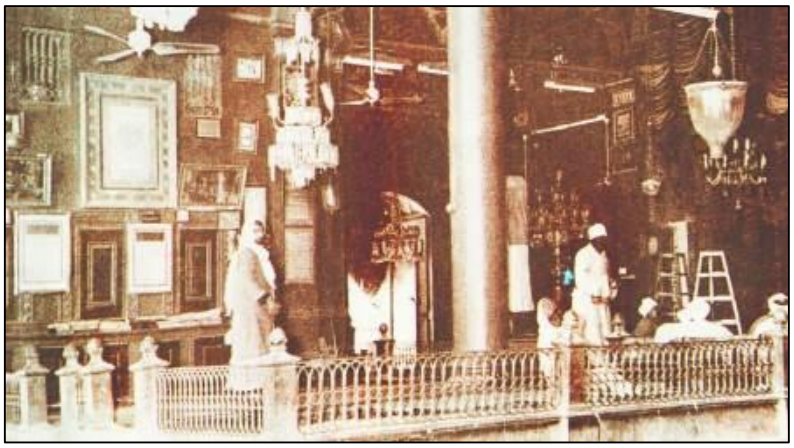

دكة القراء بالمسجد النبوي الشريف وهي المعروفة اليوم بدكة الأغوات

وهذه العادة الجميلة وهي ختم القرآن في البيوت كانت معروفة في ذلك الزمان ، ولها أصل في السنة النبوية [1] .

(١) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن البيت الذي يُقرأ فيه القرآن يكثر خيره والبيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن يقل خيره » رواه البزار .

ومن العادات الصحيحة ختم القرآن على المريض ، وقد ذكره أبو بكر الآجري المتوفى سنة ٣٦٠ هـ في كتابه « أخلاق حملة القرآن » انظره بتحقيقنا / ص ٣٥ .

ورُزِقَ الشيخُ عبد الرحيم من هذه الزوجة أربعةً من الأبناء : أكبرُهُم عبدُ الله ، يليه حبيبُ الله ، يليه فَتْحُ الله ـ الذي تسمَّى بعد ذلك بـ « عبد الفتاح » ـ وهو والدُنَا ، وأصغرُهُم نصرُ الله ..

ومن عجائب المقادير أن أوَّلَهم رحيلًا من الدنيا أصغرُهُم « نصرُ الله » ؛ تُوفي شابًا عَزَبًا يعاني وطأةَ الغربة وحيدًا في « كراتشي » بالهند ؛ ثم تلاه « فتح الله » أو عبد الفتاح ـ والدنا ـ ، حيث توفي بالمدينة المنورة في صفر من سنة (١٣٨٥) هـ ، وبعده عمُّنَا حبيبُ الله ؛ لما سمع بوفاة أخيه « عبدِ الفتاح » اشْتَرَى كفَنَه واعتزلَ الناسَ ، وقَبَعَ في غرفةٍ من داره ينتظر الموتَ وهو يقول : أنا التالي بعد أخي . وكان ذلك فتوفي سنة (١٣٨٩) هـ بمكة المكرمة ، وبعده ببضع سنين توفي الأخ الأكبر عَمُّنَا « عبدُ الله » بأفغانستان ، تغمدهم الله بواسع رحمته .

نَشَأَ الشيخُ « عبدُ الرحيم الخوقنديُّ » بالمدينة المنورة منذ نعومة أظفاره ويبدو أنه وُلِدَ بها ، وقد تَلَقَّى تعليمَه بالمسجد النبوي ؛ ومن شيوخه الشيخ « يس بن أحمد الخِيَاريُّ » المُتوفَّى سنة (١٣٤٤) هـ ، المدفونُ بـ « الفُرَيْشِ » قريةٍ على طريقِ الحاجِّ بين المدينة ويَنْبُع ؛ قَرَأَ عليه القرآنَ ، وكان الشيخ « يس » شيخًا للقراء بالمسجد النبوي حتى قدوم الشيخ « حسن الشاعر » عام ١٣٠٠ هـ ؛ حيث تنازل له الشيخ « يس » عن المشيخة ورحل إلى مصر للدراسة بالأزهر .

وفي سنة (١٣٢٠) هـ قدم من بلاد ما وراء النهر رجل من أعيان « خُوقَنْد » لقبه « جَرْشُوَان » ؛ وأعطى الشيخَ « عبدَ الرحيم » من المال ما مَكَّنَهُ من افتتاح مدرسةٍ بـ « الدَّرْوِيشِيَّةِ » أوقفها على تحفيظِ

القــرآن ، وعــلى أهـلِ القـرآن مـن مدينة « خُوقَنْد » وبقيـةِ مـدنِ مـا وراء النهـــــــر « تركستان » .

المدينة المنورة عام ١٣٢٥ هـ من الجهة الشمالية الباب الشامي

وأصبحت هذه المدرسةُ بعد ذلك مركزًا لنشاطات المجاورين من تلك الديار ؛ أفْرَاحِهِم ، وأتْرَاحِهِم ، ومَوَالِدِهِم ، وحفلاتِهِم لخَتْمِ القرآنِ ، وتُقام بها صلاةُ التراويح في رمضان ؛ وعندي تسجيل لختم القرآن بالمدرسة ، في رمضان من عام (١٣٨٦) هـ ؛ بصوتِ شيخِ المدرسةِ الشيخ « جَنَاب عبدِ القادر الخُوقَنْديِّ » رحمه الله ؛ ثم قَرَأَ دعاءَ الختم بعد الصلاة الشيخُ « حسن الشاعر » رحمه الله ؛ وذلك على المذهب الحنفي الذي يجعل دعاءَ الختم خارجَ الصلاة ..

وكان بعضُ العلماء يَفِدُونَ على المدرسةِ من أنحاء العالم الإسلامي وينزلون ضيوفًا عليها ؛ أدركْتُ منهم العلَّامَةَ المُحدِّثَ الدُّيُوبَنْدِيَّ الشيخَ « محمد يوسف البَنُّورِيَّ » رحمه الله [1] .

---

(١) في عام (١٣٧٥) هـ أقام المجاورون بالمدينة من التركستانيين حفلًا كبيرًا بهذه المدرسة احتفاءًا بالزعيم الأوزبكي والسياسي العلماني « قيوم خان » المقيم لاجئًا سياسيًا بـ « آخن » في آلمانيا ، حضره جمع غفير ؛ في مقدمتهم العلماء ، منهم : « السيد قاسم بن عبد الجبار الأَنْدِيجَاني » المُحدِّثُ المعروفُ صاحبُ « المصباح في مصطلح الحديث » و « السيد

.....

.. محمود بن نذير الطرازي » وكان منهم والدنا الشيخ « عد الفتاح القارئ » .
وفي هذا الاحتفال سمعْتُ كلمةً جيدةً للزعيم التتري « بَايْ مِيرْزَا هَايِيت » ؛ له كتابٌ عن قضية « تركستان » وسقوطِهَا تحت وطأة الاستعمار الروسي القيصري ثم البُولْشَفي – الشيوعي – ؛ عندي نسخةٌ منه باللغة الألمانية ؛ فليته يُتَرْجَم !
وفي هذا الحفل أَلْقَى الزعيمُ « قيوم خان » كلمةً أثارت استياءَ الحاضرين ، خاصةً العلماءَ منهم ؛ لأنه حَمَّلَ علماءَ « تركستان » المسؤوليةَ عن سقوطها !!
ورَدَّ عليه العلامةُ « السيد قاسم الأنديجاني » بلطفٍ مذكرًا إياه بالجهادِ الذي قَادَهُ العلماءُ ضدَّ الروسِ ، وانطَلَقَ من « خُوقَنْد » ..
وفي آخر ذلك الاحتفال طُلِب من والدنا الشيخ « عبد الفتاح » أن يختم بتلاوةِ آياتٍ من القرآن الكريم ؛ فرتَّلَ آيتين من سورة البقرة رَدَّدَهَا بالقرآاتِ السبع ، وهما : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ ○ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ** ﴾ [٢٠٤ ، ٢٠٥ / البقرة]
وفهم كثير من الحاضرين هذه الإشارة !!

الزعيم « قيوم خان » في زيارة للملك سعود ، ويبدو على يمين الملك وعلى يمينه « هاييت »

.....

.. وأنا كنْتُ يومَهَا في التاسعةِ من عمري ، لكنني اليوم أتدبَّرُ الآيتين اللَّتَيْنِ رتَّلَهُمَا والدُنا رحمه الله وأعرفُ المغزَى من ذلك ؛ إنه أراد تحذيرَ المجاورين بالحرمين من المهاجرين التركستانيين من نوايا هذا الزعيم العلمانيِّ القوميِّ « قيوم خان » الذي جاء يتلاعَبُ بعواطِفِهم ، ويُمَنِّيهِم بأحلامٍ جميلةٍ عن تحرير « تركستان » وإقامةِ حكومةٍ وطنيةٍ مؤقتةٍ ..

«قيوم خان » بالمدينة المنورة وعلى يمينه « باي ميرزا هاييت » بعده العلامة « السيد قاسم الأنديجاني » بعده والدنا متأبطًا عباءته والصبي الصغير هو كاتب هذه السطور

واتخَذَ خطواتٍ تزيد الارتيابَ حولَ حقيقةِ نواياه ، عَيَّنَ عددًا من التركستانيين المجاورين بالحرمين في مناصب عليا في تلك الحكومةِ الوهميةِ ؛ منهم الشيخُ « السيد محمود الطرازي » عَيَّنَهُ مُفْتِيًا لعموم « تركستان » ، وعَيَّنَ شابًّا سمرقنديًّا كان له دكانٌ في آخر شارع « العينية » واليًا على « سَمَرْقَنْد » ، وغيرَه واليًا على « خُوقَنْد » ، وآخرَ وزيرًا للمالية ، وهكذا ، واستطاع بذلك أن يجمع « أربعةَ ملايين » ريال ، أُودِعَتْ بالبنك الهولندي ..

الرحلةُ إلَى بلادِ مَا وَرَاءَ النَّهْر :

سنة (١٣٢١) هـ سافر الشيخ « عبد الرحيم الخوقندي » إلى بلاد « ما وراء النهر » برفقةِ الشيخِ « حسنِ الشاعر » شيخِ القراء بالمسجد النبوي ، واصطحب الشيخُ « عبدُ الرحيم » معه زوجتَه وابنَه « عبدَ الله » الذي وُلِدَ بـ « الدَّرْوِيشِيَّةِ » بالمدينة المنورةِ ، وشقيقَ زوجته « محمد أمين حَاجِّي المَرْغِلَانِي » القُومَنْدَانَ بالجيش التركي ؛ ويبدو أن هدف الشيخ « عبد الرحيم » من هذه الرحلة كان افتتاحَ مدارسَ لتحفيظِ القرآنِ بتلك الديار ؛ ووجودُ شيخ القراء بالمسجد النبوي معه في رحلته إلى بلاد ما وراء النهر سيكون له أبلغُ الأثر في نفوس المسلمين هناك ؛ وقد كان ذلك ؛ فقد استقبَلَ الناسُ في « أُوزْبكِسْتَان » الشيخ « حسنَ الشاعرَ » استقبالَ الملوكِ ،

.. وقد صادرت الحكومةُ السعوديةُ هذا المبلغَ ، وعاقبت أولئك الذين انساقوا وراءَ هذه الأحلام وقبلوا تلك المناصب الوهميةَ ..

لكنَّ هذا السياسيَّ القوميَّ العلمانيَّ « قيوم خان » كشَفَ عن حقيقةٍ كامنةٍ في نفوس المهاجرين التركستانيين : هؤلاء الترك ؛ كم هم مشتاقون إلى وطنهم الأول ، وكم هم متلهِّفُون لتحريره ، وصدَقَ ذلك الفاتحُ العربيُّ المسلم « قتيبةُ بن مسلم الباهليُّ » لَـمَّا قال : « أمةُ التُّرْكِ أَحَنُّ إلى مَوَاطِنِهَا من الإبِل إلى مَعَاطِنِهَا » ..

لو كان أحدٌ من الترك يمكن أن ينسى وطنَه لنسيَهُ هؤلاء المهاجرون الذين مَنَّ الله عليهم بما هو أعظم من موطنهم ؛ وهو سُكْنَى الحرمين الشريفين والمجاورةُ الشريفةُ بهما .

وعظَّمُوه أيَّما تعظيم ؛ وكانوا ـ كما رَوَى لي والدي « الشيخ عبد الفتاح القارئ » ـ كلما أَطَلَّ عليهم الشيخُ حسن في كل مكان ذهب إليه تنهمر دموعُ الناس شوقًا إلى المدينة المنورة .

مكَثَ الشيخُ « حسن الشاعر » في تلك الديار بضعةَ أشهر ؛ يتجول مع زميله وصديقه الشيخ « عبد الرحيم » في حواضرها ؛ ثم عاد إلى المدينة المنورة ؛ وبقِيَ الشيخُ « عبدُ الرحيم » لِيُكَمِّل مهمَّته ؛ فافتتح مدرسةً في « مَرْغِلَان » بلدةِ عروسِهِ المرغلانية ، وافتتح مدارسَ أخرى في بقية المدن والحواضر ، منها مدرسةٌ في مسقط رأس آبائه مدينة « خُوقَنْد » بَنَى مدرسةً ومسجدًا في « دِيريزْلِيكْ مَحَلَّه »

مسجد سلطان مراد بك بمدينة خوقند

وكان يباشرُ التدريسَ فيها ، ودَرَسَ عليه مئاتُ الطلاب من شباب « خُوقَنْد » ومن غيرهم مِمَّنْ وَفَدَ عليها يبتغي طلبَ العلم وقراءةَ القرآن على هذا الشيخ العربي ؛ فقد اشتُهر الشيخُ « عبدُ الرحيم » في تلك الديار بذلك فكانوا يُسَمُّونَهُ « عَرَبْ دَامْلَا » ؛ لِقدومِهِ عليهم من ديار العرب ؛ من الحرمين الشريفين ؛ ولِفَصَاحَتِهِ في قراءةِ القرآنِ ..

ومِمَّنْ قَرَأَ عليه القرآنَ في مدرستِهِ هذه الشيخُ « محمد أعظم الحسيني » من أهل خوقند ؛ وهو جَدُّنَا من الأُمِّ ، وينتسبُ إلى آلِ البيتِ .

وُلِدَ للشيخ « عبد الرحيم » أثناءَ وجوده في « خُوقَنْد » ثلاثةٌ من أولاده : « حبيبُ الله » وُلِدَ عامَ (١٣٢٦) هـ ، و « فَتْحُ الله » أو عبدُ الفتاح وهو والدُنَا وُلِدَ عامَ (١٣٢٩) هـ ، ثم « نَصْرُ الله » وُلِدَ بعدَ « فتحِ الله » بسنتين أو ثلاث ..

ثم تُوفي الشيخُ « عبدُ الرحيم » سنةَ (١٣٤٨) هـ تقريبًا ، ودُفِنَ في « خُوقَنْد » ، وبعده بستةِ أشهر لحقَتْ به زوجتُه المُحِبَّةُ ، فرحمهما الله وأسكنهما فسيحَ الجنان .

[في الحلقة القادمة : قيام الثورة « البولشفية »]